

كلمة معالي الأستاذ ميشال اده

في الذكرى السنوية الخامسة لرحيل الشاعر جودت حيدر

الجامعة اللبنانية الأميركية - بيروت ٦ كانون الأول ٢٠١١

من نتحلّق اليوم حول ذكراه يكرّمنا بحضوره العصيّ على الغياب. ففي هذه العتمة المقلقة التي تخيم على لبنان، يحملنا ابن مدينة الشمس على أن نستقرئ سواء السبيل الى تبيد غوائلها في كتاب عمره المديد وفي ما خلفه لنا من تراث ابداعي ساطع. والى سمو الشمس تجد نفسك كذلك بحضور جودت حيدر عاموداً من أعمدة بعلبك طوداً شامخاً، نابضاً أبداً بعراقة وتميز هذا الوطن المختلف. بكونه منفتحاً على التنوع الديني والتعدّد الثقافي. وهما معاً قوام فرادة لبنان بعيثه المشترك، وبديموقراطيته التي يستحيل تغييرها مهما استنوى عليها عصف النزعات والأهواء الأحادية أو الاستبدادية أو العنصرية. فهذا الكيان الشمس، لبنان، يستحيل أن تتغلّب عليه الظلمات ما دامت الديموقراطية في ربوعه تنبني وتقوم على الحق في الاختلاف وعلى احترام الآخر وقبوله باختلافه.

لبنان، ببنيته هذه، لم يبدع فقط رواداً نهضويين، ورواداً مجددّين، في الحداثة والشعر والأدب والفنون والثقافة والعلم والعمل الأكاديمي، وواحد من كبارهم جودت حيدر. بل إن هؤلاء جميعاً وجودت حيدر، واحد بارز منهم، يرسخون بدورهم وإبداعاتهم فرادة هذا الوطن الرسالة.

ولسوف أظلّ أستذكر ما أسرّ لي به جودت حيدر عن اعترامه المبادرة الى ترميم تمثال شاعر القطرين خليل مطران، ابن بعلبك الكاثوليكي وعنوان إبداعها وريادتها في تاريخ المنطقة وتاريخ شطر كبير من العالم، مشدداً على إعادة ذلك التمثال الى مدخل بعلبك - وهو ما تحقّق بمهرجان لبناني عربي حاشد جامع في صيف العام ١٩٩٥. وشاعرنا لم يكن يرى الى هذه المبادرة تذكرة وفاء لشاعر لشاعر زميل وحسب. ولا رأى إليها مجرد عربون وفاء مواطن بعلبكي لتربّ له نشأ مثله على شمس بعلبك هو الآخر.

أحسب أنّ في هذه المبادرة من قبل جودت حيدر الى ذكرى خليل مطران انتباه عميق للدلالات الى فضيلة التنوع اللبناني. بل أحسب أنّ جودت حيدر، في إقدامه ذات مرة على السياسة، إنّما باشرها آتياً من حقيقة الإبداع الأولى: الحقيقة التي تؤكد أنّ هواء الإبداع إنّما هو التنوع وليس التماثل. فهو، هذا التنوع، ما يطلق الحرية ويوفّر لها شروط التفتح والتخليق.

أ و ليس لافتاً للنظر والإعجاب، أوّلاً بأول، تمسكّ شاعرنا بأن يكتب تجربته الشعرية باللغة الإنكليزية، وهو القابض بصورة خلاقة على ناصية العربية؟ إنّ لفي ذلك تجسيدا فريداً لأهمية الانفتاح، وتعبيراً فذاً عن حضوره في إبداع هذا الشاعر وفي نظرة هذا الرجل الكبير ومواقفه. فالثقافة هي ثقافات. كل ثقافة هي احتكاك وتفاعل: قل حوار ثقافات. أمّا الثقافة التي ينقل أبنائها عفواً أو عمداً عن الثقافات الأخرى، فهي حكماً الى انحطاط وزوال ما دامت لا تقتات إلا من تقوقعها وانغلاقها أي من أحاديثها وهو عنوان العقم.

دعوني أذكركم، في مثال ثانٍ تُعرف به سيرة جودت حيدر وإنجازاتها، وفي عداد الأوسمة الكثيرة الرفيعة التي منحت له، بالوسام المرموق، «مقعد القدس البابوي» الذي منحه له قداسة الحبر الأعظم الراحل يوحنا الثالث والعشرون. وهذا فضلاً عن الأوسمة المرموقة الأخرى من البطيركية الأرثوذكسية وبطيركية الأقباط الأرثوذكس.

أ و ليس هذا التقدير المسيحي الرفيع لجودت حيدر تحيةً بليغة للدلالات الى حرصه الجوهري على الانفتاح واحترام التنوع؟ الى إصراره المتسق الثابت على نبذ الأحادية والتعصب، والتعنصر الديني والعرقي.

وفي مثال ثالثٍ ورابعٍ... وعاشرٍ في دراساته الجامعية وممارساته الأكاديمية والعملية في الزراعة والتربية وممارساته في التربية والتعليم في لبنان وفي فلسطين أيضاً، أ و لم يحافظ جودت حيدر على ميزة ناصعة:

أن يكون تأسيسياً، وكلّ تأسيس إبداع ؟

بعدها استقال من دنيا الأعمال والشركات، والسياسة المباشرة التي جربَ خوضها مرّةً يتيمة يُقالُ إنه مالَ للتفرُّغِ الى الشعر. هنا أيضاً تشدُّك الى دواوينه الثلاث بالإنكليزية عناوينها بالذات، بما توحى به من أنه يتابع في الدواوين الثلاثة قصيدة عمره الواحدة ذاتها إيّاها : فمن «أصوات» (voices) عنوان ديوانه الأوّل كان لا بد من أن يتوقّف عند «أصداء» (echoes) تلك الأصوات - وهي عنوان ديوانه الثاني. وصولاً الى الكشف عن مكنونات «الظلال» (shadows)، عنوان ديوانه الثالث.

أمّا مفاجأته اللافتة فكانت وداعه الأخير لنا قبيل انتقاله الى جوار باريه، ديوانه الأخير :

one hundred one - selected poems «مئة قصيدة وقصيدة مختارة». فيا لهذا الشاعر المُعجِبُ : كان مبدعاً للشعر طيلة عقدين. لكنّه أصرَّ على أن يلفت انتباهنا قبيل رحيله بأنّه يودّعنا ناقداً، مغربلاً لشعره.

كم أنه يتوجّب علينا، مبدعين ومتقّفين وسياسيين بخاصة، أن نستذكر هذا النبل في نقد الذات. وفي نقد الآخر كذلك. ذلك أن الأهمّ يبقى قبول النقد باعتباره مشاركةً مبدعةً في أوركسترا التأليف وليس عداوةً بغیضة.

إليك يا فقيدنا الغالي جودت حيدر أطيّب السلام والرحمة. إنّ لحضورك في حياتنا مذاقاً بالغ الخصوصية والفرادة والفروسية والنبل.